كـــل الألـــوان

قابلت فى "اكسفورد استريت" فى لندن الشهر الماضى أحد الزملاء من السياسين المحترفين المقيمين فى لندن من ذوى القامات والمتمردين على الزعامات فى القول والفعل .. وكان طبيعى فى مداعباتي له منذ زمن الدراسة أن ينتهى به المطاف فى المنفى قال لى: "اننى أتابع كتاباتك الأخيرة وأحسدك على هذا النشاط المتواصل وكنت اظنك عدت الى السودان عند ما قرأت لك فى الصحف السودانية وفوجئت عندما قلت انك ما زلت بالخليج". قلت له: "هذه ثورة التكنولوجيا". قال لى: "حقيقة ما يدهشنى انك تكتب من خارج السودان وفى صحيفة (ألوان) وهى ذات طابع محسوب على النظام وقلت له: "وأنا محسوب على من؟؟". قال لى ضاحكا: "أظنك محتسب !؟". قلت له: "لقد كنت دائما كذلك منذ شبابى وأنا(معارض)".. لأننا تعلمنا أن المعارضة هى السير فى الإتجاه المعاكس للحكومة .. وكانت هذه فلسفة كل الأحزاب السياسية الحاكمة.. وتربية الأحزاب المعارضة فى بذل كل غال ورخيص من أجل إسقاط الحكومة والجلوس على كرسى الحكم مما جعل الناس يسمون الحكم "لعبة الكراسي" وقد وجدت نفسي بالضرورة مصنفاً فى المعارضة لأن الأصل فى الصراع كان الوصول الى الحكم وكنا بعض أدوات الصراع حيث لا يملك حزب واحد برنامجا وطنيا لتغيير سياسات تخدم قضايا الوطن .. وكانت الحكومات تسقط وتقوم والوطن يزداد فقراً وجوعاً ومرضا حتى وصل مرحلة لقبوه "رجل افريقيا المريض".

والسياسيون من أقصى اليمين الى أقصى اليسار يمارسون لعبة الكراسى وهواية التصنيف أما فى أقصى اليمين "رجعى"، وهى تعني فى النهاية موالى للحكومة أو عميل للخارج أو فى أقصى اليسار "يسارى"، وهى تعنى فى النهاية معارض للحكومة أو "اشتراكى" ولا ثالث لهما إلا قلة ضئيلة تأكل على كل الموائد وتقرع على كل الطبول ولا يقيم الناس لها وزناً حتى لو كان بعضها من أصحاب الرأى الناضج الساخر من هذه المعادلة السياسية المبتسرة .. ونشأنا على مقاومة أسلوب الحكومة فى القهر والكبت والسجن والإعدام، وأسلوب المعارضة فى طباعة المناشير والكتابة بالطبشير وصناعة الشعارات وتسيير المظاهرات. وظل السودان كله حكومة وشعباً يدور فى هذه الحلقة المفرغة .. ولذلك نجد أن تصنيف أكثر ساسة الأجيال القديمة كان على طرفي نقيض إما معارض "يسارى" أو مساند "رجعى".

وعلاقة الفرد بالحزب تنتهى بدوره فى نهاية آلية صراع المؤسسة فإذا وصلت المعارضة الى الحكم استأثر الزعماء بكراسى السلطة وتركوا أفراد المعارضة فى الشارع واذا سقطت الحكومة ذهب الزعماء الى السجن وبقى المساندون القدامى يبحثون عن طرق الدخول فى الحكومة الجديدة من باب المعارضة القديمة .. ولو نظرت الى الخريطة السياسية تجد هناك من ظل يتوارث الحكومات الديمقراطية والعسكرية واتقن فن لعبة الكراسى فى الحصول على مقعد فى أى حكومة وبأى لون لأنه فى الأصل لم تكن هنالك قضايا مرتبطة جذرياً بمصلحة الوطن المتجردة من كل غرض.

ولذلك تجد على امتداد التاريخ السياسى المعاصر ان الذين جاهروا بمعصيتهم للحكومات من أجل برامج وطنية ظلوا طوال هذا التاريخ خارج تشكيلة المنتخب السياسى.. يعيشون فى هجير المعارضة ونالوا جزاء "سنمار" أما آدمانا للمعتقل أو عطالة فى العمل أو اغترابا فى المنفى .. والقلة التى احترفت فن التعاطى مع الأزمات .. وخطب ود الحكومات بقيت ما بين وزير مفوض أو وزير دولة أو وزير بلا أعباء وهذا أفضل الخسران أوأضعف الايمان.

PDF processed with CutePDF evaluation edition www.CutePDF.com

وعندما جاءت لحظة المخاض الحقيقى .. ونهاية ماراثون السباق السلطوى وبقيت مصلحة البلاد تحت المحك وعنق السودان تحت رحمة سيف الجلاد المسلول لعدة سنوات .. أصبح وجود برنامج وطنى .. هدفا حيويا .. من أجل البقاء على قيد الحياة وليس البقاء على كرسى الحكم فقط.

فالذين خرجوا من عباءة الوطن ليتحالفوا مع الشيطان لإسقاط الحكومات من الداخل أو الخارج تارة بإسم اللجوء السياسى وتارة باسم التمرد الشعبى وتارة باسم الوحدة الوطنية .. لبسوا طاقية الإخفاء ودخلوا بلا ضوضاء الى ساحة العمل السياسى من باب الحفاظ على وحدة السودان التى تتعرض الى أقصى امتحان .. وهذا هدف نبيل يبرر كل فكر أصيل فى القول والفعل وأصبح الإمتحان الحقيقى لصدق النوايا هو الأصل فى الفكر المعارض .. والمعارض لمصلحة من؟ إذا كانت الفئة الحاكمة تفتح باب الحوار .. وتتيح مبدأ الحرية وتدعو للمشاركة فلا يهم ماذا يكون لونها .. لأننا من فرط طول الأدمان لحوار الطرشان أصابنا عمى الألوان . . وإذا كانت المعارضة تعمل لذات الهدف ففيم الخلف والاختلاف فى نهاية المطاف ؟

عود على بدء .. إننى منذ أن بدأت الكتابة فى فجر مبكر .. كنت أكتب للسودان .... والمراجع فى هذا فى دار الوثائق الوطنية بارقام إيداع موثقة فى تواريخ مثبتة منذ عقود .. ما كتبته شعراً أو نثراً فى الداخل أو الخارج .. وعندما كنت وما زلت فى صف المعارضة الفكرية الراشدة كان من قناعة ذاتية أن الإنقياد الأعمى للتشيكلات السياسية القائمة هو بقايا الجذوة التى أشعلت الحرائق المدمرة من الإنقلابات العسكرية التى تأتى للقضاء على فساد الأحزاب ثم لا تلبث أن تغرق فى أوحال القبلية والطائفية من الحق الشرعى فى الحكم .. إلى الحق الإلهى فى الولاية .. الى آخر هذه القائمة من الحقوق التى يسندها فقه الضرورة.

وإننى اكتب فى صحيفة "الوان" لأننى أعلنت منذ اليوم الأول للكتابة الظروف الموضوعية التى دفعتنى الى الكتابة .. حتى أن صحفياً محاورا بالداخل قال لى: "يكاد المريب أن يقول خذونى .. لماذا تعتذر كالذى يعلن التوبة عن جرم لم يرتكبه؟" .. فقلت له: "إننى أخاف من حكم التاريخ فقد عشت عفيف اليد واللسان داخل السودان .. فلا أريد أن أسلخ جلدى وأنا خارج السودان ولست مكرها فى الحالتين و ليس عندى ما أخفيه و ليس لدى ما أخاف عليه". وبالرجوع الى أول مقالاتى تجدون مرافعتى فى الكتابة فى صحيفة "ألوان".. فإذا كانت "ألوان" محسوبة على الحكومة فهى على قلة معرفتى ببواطن الأمور تبدو أكثر من يعانى من مضايقات الحكومة ويكفى أن رئيس تحريرها أصبح كأحد طلاب السكن الداخلى فى سجن الحكومة فى كثير من الأوقات .. وما زال فى تقديرى أن هذه شئون عائلية داخل أسرة وأحدة تجتمع وتختلف حول أجندتها الخاصة ..ولكن يجب ألا نبخس الناس أشياءهم.

أما أجندتى الكبرى فتبقى حرية التعبير وكفى .. ويكفى أن "الوان" قبلت فى أمانة منقطعة النظير نشر مقالاتى الكترونيا بكل معاييرها . . وحزافيرها .. ومحاذيرها .. وهى عندى مجرد عمود أسبوعى فى الصحافة السودانية من أقصى اليمين الى أقصى اليسار مفتوحة للجماهير .. و"ألوان" أحد ألوان الطيف السياسى الموجود على الساحة .. ومن يقبل شروطى على "ألوان" فسوف أبدأ الكتابة له منذ الآن دون الإخلال بميثاق الشرف مع "ألوان" إلا اذا رأت غير ذلك ..وهى حرة فيما تقول وتفعل.

وأنى لا انتظر شكراً فى السر أو العلن .. ولا اطلب أجراً داخل أو خارج الوطن .. وهو قسم لو تعلمون عظيم ..و الله وراء القصد.

و لنا عودة باذن الله...

دكتور الزين عباس عمارة – أبوظبى